تفتح ملف مجلس محافظة بغداد

مناطق واحياء في بغداد تحتاج الى خارطة للاستدلال على مواقعها

حي "التنك" بعد انتشاره العشوائي :هل من حلول لأزمة ساكنيه؟

في الوقت الذي استبشرت فيه الغالبية من ابناء شعبنا بعد عام ٢٠٠٣ بشيء من التقدم في مجال الخدمات يعوض عنها سنوات الحرمان، ويجعله تلمس مقدار ما يزخر به العراق من خدمات، وفي الوقت الذي نعيش في الالفية الثالثة بكل ما يفترض ان يعنيه من تقدم، في هذا الوقت وبعد ان تجاوزنا العام السابع ودخلنا الثامن، لا نملك إلا أن نتساءل عن كل تلك الوعود والبرامج التي حفلت بها برامج الكتل السياسية، عند كل زيارة لمنطقة او حي من الاحياء المنسية في بغداد التي لاتعرف الخدمات بحدودها الدنيا طريقاً اليها. ربما ان سكان هذه المناطق تجاوزوا القانون وبنوا مساكنهم خارج الضوابط، لكنهم مع ذلك عراقيون ويستحقون من يستمع الى مشاكلهم خاصة من قبل المسؤولين في مجلس محافظة بغداد والمجالس البلدية ويتناقشوا معهم عن حلول لمشاكلهم البسيطة.

تحقيق وتصوير /ايناس طارق

ففي المنطقة التي كانت تسمى معسكر الرشيد سابقاً وبالقرب من منطقة الزعفرانية وبمسافة عدة كيلومترات عن منطقة بغداد الجديدة، عوائل لا تعرف شيئاً عن السياسة في العراق،و لا من يحكمه، ولا يعرفون شيئا عن ابسط كماليات الحياة. غرف بنيت من صفائح الدهون،لذا فهي لا تستطيع ان تقاوم امطار فصل الشتاء ولا حتى الزخات الخفيفة منه فقد غرقت بيوت هذه المنطقة لمدة ثلاثة ايام بسبب سقوط الامطار على العاصمة بغداد في شهر كانون الاول عام ٢٠١٠ واستقبل ساكنوها عام ٢٠١١ بطفح المياه ومجاري الصرف الصحي لمنطقة الزعفرانية. ولم يسعفهم مجلس محافظة بغداد بحل الذي يصرح دائما بان لديه لجنة خدمات بغداد، ولاندري اين هي الخدمات والمواطنون يعيشون وسط ارض جرداء ولولا همة وشهامة القوات الامنية العراقية التي طلبت المساعدة من امانة بغداد لسحب الماء عن الحي الذي غرق سكانه وهم يصرخون ويستنجدون بهم للحيلولة دون غرقهم ودون اصابة اطفالهم بالمرض فهم محاطون بالطين والمياه الاسنة ولا من منقذ!

هذا الحي له مدخل واحد تقريباً حيث يكون الدخول اليه من جهة نقطة سيطرة الفوج الاول اللواء الثامن شرطة اتحادية،الذي ساعدنا في التجوال في هذه المنطقة فعلى الرغم من انها احياء من "التنك" لكن سكانها يرفضون احيانا الزوار خوفاً من ترحيلهم وجذب الانتباه اليهم فهم كما يقول اناس منسيون ولايتذكرهم المسؤولين الا وقت الانتخابات فقط حيث يسمعون الكلام الجميل المليء بالوعود.

تنتشر أحياء التنك في العاصمة بغداد وفي مناطق متفرقة من الجنوب والوسط والشمال، سكانها خليط من مجتمعات مختلفة وتشترك معظم منازل حي التنك بصفة مشتركة تجمعها هي انها مكوّنة من صفائح التنك لاغير. اكيد ان هؤلاء المواطنين لم يعرفوا انهم يؤسسون لظاهرة بدت جديدة على العاصمة بغداد اذ صف منزل تلو الاخر حتى اضحت مجمعات سكنية تعرف باسم (احياء التنك) وبات المسؤولون في الحكومة والمحافظة ومجلس محافظة بغداد كما يبدو،عاجزين تماماً عن فعل اي شي لها. فمساحة افضل غرفة في تلك الاحياء لا تتجاوز الاربعة امتار مربعة وعلى ارضيتها الطينية الرطبة مجاميع مبعثرة من الفرش البالية لاتليق بان يتوسدها انسان، وكلما توغلنا في هذا الحي الغريب العجيب عادت بنا الذاكرة قسراً الى اسوأ ما قراناه عن مآسي ونكبات من عاش في القرون الوسطى، وما ينعش الذاكرة بكل تلك القراءات لازمنة يفترض ان تكون في خبر كان، هذه الحيوانات التي تصول وتجول واكوام النفايات المحيطة بالمكان والخوف والقلق الذي ينتاب الزائر الى هذا الحي من ان تنزلق قدماه في الوحل، فضلاعن الروائح الكريهة المنبعثة من الحفر القريبة من المنازل والتي كتب عليها "W".

منطقة الزعفرانية وعندما جئنا الى المكان لم يكن عدد المساكن يتجاوز العشرة كحد اعلى وبالتدريج تصاعد هذا الرقم ليبلغ عددها الان ٤٠ منزل صفيح بنيت عشوائياً وبصورة مبعثرة..

اما جاره وهو رجل كبير في العمر و اشتد به المرض بسبب تعرض جسمه الى الرطوبة العالية وبرودة الجو فالشتاء قارص البرودة فيقول بالم وحسرة تقطع انفاسه المتعبة: هذه البيوت تخفي خلف صفائحها الكثير من المآسي والآلام التي تنهش سكان أحياء التنك.. فواقع اهلها مرير ومزر وهم يعانون من مشاكل لاحصر لها أغلبية مرهقة متعبة من تراكم سنوات عجاف نتيجة تفاقم الحروب وتدهور الأوضاع الإقتصادية والسياسية والناس هنا مجبرون على ان يصارعوا ويواجهوا اسوأ ما في الحياة من اجل البقاء على الرغم من الوضع البيئي السيئ والكارثي بكل ما تحمله الكلمة من معنى، فالقوارض تملأ المكان والعقارب تهاجم السكان بين فترة واخرى بسبب طبيعة الارض، اما الافاعي التي تكثر في فصل الصيف واصبحت الكلاب السائبة وحوشاً يخافها السكان بسبب الجوع ربما واعتادت هذه الكلاب ان تهجمهم في الليل فالمكان يسوده الظلام الدامس.

ويقول الملازم محمد ان المنطقة من لواء الشرطة الاتحادية تم ايصال الطاقة الكهربائية لهم بعد ان اصبحت اوضاعهم متعبة خاصة في الليل الذي كان يكثر فيه صراخ الاطفال جراء تعرضهم الى هجمات البعوض والقوارض ولدغات الحشرات الزاحفة المختلفة، اما الماء فقد تم سحبه من انبوب في منطقة الزعفرانية أي "تجطيل" بالمعنى الدارج.

ويضيف ان الحي واجه ازمة كبيرة عند هطول الامطار "اذ لم يستطع سكانه النوم ليومين بسبب تدفق مياه الامطار الى داخل منازلهم المشيدة من سقوف هشة وحيطان مؤلفة من علب تنك مليئة بالطين.

اما الاطفال في هذه الاحياء فمظاهر البؤس والفقر واضحة عليهم فضلاً عن التسرب من المدارس الذي يؤدي الى تفشي ظاهرة عمل الاطفال بسن مبكرة فهم يعملون في مجالات مختلفة وينتشرون في شوارع بغداد القريبة من الحي مثل الكرادة او تقاطعات الطرق والاشارات الضوئية لبيع البضائع، هذا بالنسبة للكبار منهم،اما الصغار فاكثرهم يمتهنون التسول ويبرعون فيها.والقسم الاخر منهم يمتهنون نبش الازبال حيث يبحثون عن بقايا الالعاب او حاجيات قد تفيدهم او بقايا طعام يقدمونه لدوائبهم ولنا ان نتصور اي مستقبل ينتظر هؤلاء الاطفال الذين حرموا من ابسط مستلزمات الحياة الكريمة.

عوائل تستنجد بالقوات الامنية بعد ان اغرقتها مياة الامطار والصرف الصحي لمنطقة الزعفرانية

يقول فالح الذي يبلغ من العمر ١١ عاما وكان يمسك عصا بيده ينبش فيها النفايات،لااعرف القراءة والكتابة فقد وجدت نفسي اكبر وسط هذا الحي الذي انتقلنا اليه عام ٢٠٠٤و والدي يبيع العلب الورقية وامي ايضاً وانا واختي نبحث يومياً في النفايات عسى ان نجد فيها رزقاً نعود فيه مسرورين الى اهلنا.

ما شاهدناه في هذه الاحياء مأساوي ومؤلم حيث تفتقر الى ابسط متطلبات الحياة الانسانية و تغيب عنها ابسط الخدمات كالماء والكهرباء ويستعيض الاهالي عن الكهرباء بالمصابيح النفطية (الفانوس والالة) ويشترون الماء، فيما يلجأ بعض السكان الى كسر انابيب الماء التابعة للاحياء السكنية المجاورة للحصول على ما يحتاجونه وبالتأكيد فان مساكن من هذا النوع لا تتوفر فيها الحمامات الصحية انما يقوم كل بيت بعمل حمام على طريقته الخاصة "الحفر البدائي" ولا يستحمون الالفترات طويلة بسبب شرائهم الماء العزيز وجوده عندهم.

يقول ستار ويبلغ من العمر ١٨ عاماً نضطر الى الاستحمام احياناً في غرف بنيناها من الصفيح ايضاً لكن بمسافة قريبة من بيوتنا فالماء قليل وشحيح اما الاطفال فلا يستحمون لهذا هم دوما يعانون من امراض جلدية ويصابون بالقمل.

تقول ام ستار، انها لجأت الى الحي بعد نزوحها وعائلتها من المنطقة التي كانت تسكنها ولديها اربعة اولاد بعضهم يعمل في جمع العلب الفارغة والبعض الاخر يبيع الكلينكس في التقاطعات وهي تعمل بين فترة واخرى في التسول اذا كان احد اولادها مريضاً، أحياء انتشرت وسط الساحات المتروكة وفي أطراف المدن لتصبح مجمعات سكنية للمعدمين أطلق عليها اسم "حي التنك،اضافة الى ان غالبية سكان احياء التنك في بغداد من العائلات النازحة والمهجرة او المعدمة التي لاتقوى بسبب ارتفاع الايجارات الى العودة مجدداً الى المنازل التي تركتها،هذا ما لمسناه في زيارتنا لعدة احياء.فقد اجبت الاوضاع الامنية غير المستقرة سابقاً هذه العوائل والازمات الاقتصادية والبطالة على التمرد على القانون بأي ثمن ولم يجد هؤلاء غير الساحات المنتشرة والاماكن الفارغة وملاعب كره القدم الشعبية ملاذاً لهم، ولم يجدوا غير الصفائح المعدنية الفارغة الموجودة في مكاب النفايات لتكون مواد اساسية لبناء منازلهم.

بدوره سبق ان اعترف رئيس مجلس محافظة بغداد بوجود ازمة سكن كبيرة في بغداد ينبغي معالجتها سريعاً، مشيراً الى أن هناك مشروعين سكنيين ضخمين تحت الانشاء الان لبناء مجمعات سكنية عمودية الاول في مطار المثنى سابقاً والثاني في معسكر الرشيد التابع الى الجيش العراقي سابقاً. لكن لانظن ان سكان احياء التنك مشمولون بهذين المشروعين لعدم امتلاكهم المال لدفع الاقساط المالية، ولانظن ان المجلس او اية جهة اخرى لديها تصور عن معاناتهم، او الاكتراث لايجاد الحلول لوضعهم المزري.

اوبئة وامراض انتقالية

يشير احد تقارير وزارة الصحة الصادر عن قسم مراقبة الامراض الانتقالية والاوبئة الى تفشي الامراض في اغلبية احياء التنك والمتجاوزين على الاراضي العامة التي عادة ما تكون بالقرب من مكاب النفايات والازبال الواقعة في اطراف العاصمة، اذ لا يجد سكان هذه الاحياء غير مهنة نبش هذه الازبال واستخراج المخلفات من المعادن او البلاستيك وعبوات المشروبات الغازية الفارغة ليبيعوها الى وسطاء متخصصين بهذا العمل وهم بدورهم يقومون ببيعها الى اصحاب المعامل.

هذه الاحياء المنتشرة في العاصمة بغداد من الجهة الشمالية والشرقية والجنوبية منسية وتحتاج الى خرائط خاصة للاستدلال عليها خاصة من قبل المسؤولين في مجلس محافظة بغداد، ليعرفوا بعضاً من المعاناة الانسانية التي تواجه السكان في هذه الاحياء المبنية عشوائياًفي الساحات والاماكن العامة والتي باتت تشوه وجه العاصمة بغداد وشوارعها بشكل كبير. حياة لا تشبه اي حياة اخرى ولاتتناسب ومااندعيه من توجه لمستقبل مشرق.. أماكن جديدة تبنى فيها المنازل بوقت قياسي لا يستغرق اليوم الواحد لان موادالبناء ابتكرتها حالة الضرورة!

وتؤكد الاحصاءات الرسمية لوزارة الهجرة والمهجرين ان ٦٠ في المئة من العائلات المهجرة لجأت الى السكن في احياء صغيرة مشيدة من الصفيح على اراض متروكة ومملوكة للدولة بسبب سوء الوضع الامني في المناطق التي تم تهجيرهم منها واضطرارهم الى الخروج من منازلهم دون بيعها او اصطحاب الاثاث معهم، اما المؤجر منهم فلم يعد بوسعه العودة وضاع البيت الذي كان يسكنه بايجار مع الاثاث الذي هو كل ما تملكه هذه العوائل البائسة.

ويقول الناطق الرسمي باسم وزارة الهجرة والمهجرين، ان هذه الاحياء تفتقر الى ابسط متطلبات الحياة الانسانية حيث تغيب عنها خدمات الماء والكهرباء،ويؤكد ان جميع احياء التنك تفتقر الى المرافق الصحية حيث يقوم الاهالي بتشييد مرافق صحية متنقلة مصنوعة من القماش.

الحقيقة التي نؤكدها مرة اخرى وكما ذكرنا في بداية تحقيقنا ان الناس في هذه المنطقة يعاتشون على النفايات والتسول وفي ظروف صعبة من كل النواحي، لذلك يصاب اكثرهم بالامراض الجلدية والانتقالية، ولا نجانب الحقيقة اذا قلنا ان الخوض في تفاصيل ما تعيشه هذه الاحياء المكتظة بالناس والمهملة يحمل الكثير من الخوف والاسى، فالزائر اليها اول مرة قد يفقد الامل بالحياة ويعتقد انه يعيش في بلد خارج نطاق التغطية وتسود صورة المستقبل امامه لان ما يراه يحدث لبشر يعيشون في بلد يعتبر الاغنى بالبترول ولكن شعبه الافقر حيث ما زال بعضهم يعيش في منازل الصفيح.. منازل كنا لانعرف عنها شيئاً غير اننا نشاهدها في بعض الافلام التي تتحدث عن مناطق هي الاكثر فقراً وبؤساً في العالم!!! واذا كانت صور الفقر والمناظر المؤلمة لاهلنا في السنوات التي سبقت ٢٠٠٣ يمكن تحملها والصبر عليها، بانتظار الفرج ومجيء عهد جديد كنا موعودين بتغيير واقعنا فيه نحو الاحسن، غير ان معاناة احياء التنك ومشاهد البؤس تجعلك تعتقد انك تعيش في القرون الماضية وفي بلد لم تطأ ارضه الحضارة. والسؤال المكرر والمملّ اين مجالس المحافظات التي تهدر الملايين في مشاريع نسمع عنها ولا نراها؟ واين الحملات التي يطلقها مجلس محافظة بغداد كل يوم وهذه المنطقة تفترس كلابها السكان لانهم بلا مأوى،وكيف عالجت لجنة الخدمات في مجلس محافظة بغداد مشكلة التخلص من النفايات وايجاد بدائل لطمر النفايات بدلا من رميها في هذه الاحياء؟!

احياء في العاصمة اهلها يعيشون البؤس والفقر ولايعرفون شيئاً اسمه الحكومة!